مجانب، لا داخل العالم ولا خارجه، فيصفونه بصفة العدم والممتنع، ولا يصفونه بما وصف به نفسه من العلو والاستواء على العرش.

الإيمان بالإسراء والمعراج، ورواية البخاري رحمه الله

قال الطحاوي: (والمعراج حق، وقد أسري بالنبي ﷺ وعرج بشخصه في اليقظة إلى السماء، ثم إلى حيث شاء الله من العلا، وأكرمه الله بما شاء، وأوحى إليه ما أوحى، ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾﴾ [النجم] **، فصلى الله عليه في الآخرة والأولى).**

قال الشارح قاضي القضاة ابن أبي العز:

المعراج: مفعال، من العروج، أي: الآلة التي يعرج فيها، أي: يصعد، وهو بمنزلة السلم، لكن لا يعلم كيف هو، وحكمه كحكم غيره من المغيبات، ونؤمن به ولا نشتغل بكيفيته.

واختلف الناس في الإسراء:

فقيل: كان الإسراء بروحه ولم يفقد جسده نقله ابن إسحاق عن عائشة رضي الله عنها ونقل عن الحسن البصري نحوه، لكن ينبغي أن يعرف الفرق بين أن يقال: كان الإسراء منامًا، وبين أن يقال: كان بروحه دون جسده، وبينهما فرق عظيم، فعائشة ومعاوية رضي الله عنهما لم يقولا: كان منامًا، وإنما قالا: أسري بروحه ولم يفقد جسده، وفرق ما بين الأمرين: أن ما يراه النائم قد يكون أمثالا مضروبة للمعلوم في الصورة المحسوسة، فيرى كأنه قد عرج إلى السماء، وذهب به إلى مكة، وروحه لم تصعد ولم تذهب، وإنما ملك الرؤيا ضرب له المثال، فما أرادت عائشة ولا أراد معاوية أن الإسراء كان منامًا، وإنما أراد أن الروح ذاتها أسري بها، ففارقت الجسد ثم عادت إليه، ويجعلان هذا من خصائصه، فإن غيره لا تنال ذات روحه الصعود الكامل إلى السماء إلا بعد الموت.

وقيل: كان الإسراء مرتين، مرة يقظة ومرة منامًا، وأصحاب هذا القول كأنهم أرادوا الجمع بين حديث شريك وقوله: «ثم استيقظت» وبين سائر الروايات، وكذلك منهم من قال: بل كان مرتين، مرة قبل الوحي، ومرة بعده.

ومنهم من قال: بل ثلاث مرات، مرة قبل الوحي، ومرتين بعده، وكلما اشتبه عليهم لفظ: زادوا مرة، للتوفيق! وهذا يفعله ضعفاء أهل الحديث، وإلا فالذي عليه أئمة النقل: أن الإسراء كان مرة واحدة بمكة، بعد البعثة، قبل الهجرة بسنة، **وقيل:** بسنة وشهرين. ذكره ابن عبد البر.

قال شمس الدين ابن قيم الجوزية: يا عجبًا لهؤلاء الذين زعموا أنه كان مرارًا! كيف ساغ لهم أن يظنوا أنه في كل مرة يفرض عليهم الصلوات خمسين مرة، ثم يتردد بين ربه وبين موسى حتى تصير خمسًا، **فيقول:** «أمضيت فريضتي، وخففت عن عبادي»، ثم يعيدها في المرة الثانية إلى خمسين، ثم يحطها إلى خمس؟ وقد غلط الحفاظ شريكًا في ألفاظ من حديث الإسراء، ومسلم أورد المسند منه ثم **قال:** «فقدم وأخر، وزاد ونقص»، وأجاد رَحِمَهُ اللَّهُ ، انتهى كلام ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ .

وكان من حديث الإسراء: أنه ﷺ أسري بجسده في اليقظة، على الصحيح، من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، راكبًا على البراق.

قال البخاري في الجزء الخامس من «صحيحه»: حدثنا هدبة بن خال، حدثنا همام ابن يحيى، حدثنا قتادة، عن أنس بن مالك، عن مالك بن صعصعة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن نبي الله ﷺ حدثهم عن ليلة أسري به: «بينما أنا في الحطيم، وربما قال: في الحجر مضطجعًا، إذ أتاني آت فقدَّ. **قال:** وسمعته يقول: فشق ما بين هذه إلى هذه. فقلت للجارود وهو إلى جنبي: ما يعني به؟ **قال:** من ثغرة نحره إلى شعرته، وسمعته يقول: من قصه إلى شعرته، فاستخرج قلبي، ثم أتى بطست من ذهب مملوءة إيمانًا، فغسل قلبي، ثم حشى، ثم أتيت بدابة دون البغل وفوق الحمار، أبيض.

فقال له الجارود: هو البراق يا أبا حمزة؟

قال أنس: نعم، يضع خطوه عند أقصى طرفه، فحملت عليه، فانطلق بي جبريل، حتى أتى السماء الدنيا فاستفتح، فقيل: من هذا؟

قال: جبريل.

قيل: ومن معك؟

قال: محمد.

قيل: وقد أرسل إليه؟

قال: نعم.

قيل: مرحبًا به، فنعم المجيء جاء؟

ففتح، فلما خلصت، فإذا فيها آدم، **فقال:** هذا أبوك آدم فسلم عليه فسلمت عليه، فرد السلام، ثم قال مرحبًا بالابن الصالح والنبي الصالح.

ثم صعد حتى أتى السماء الثانية، فاستفتح. **قيل:** من هذا؟

قال: جبريل.

قيل: ومن معك؟

قال: محمد.

قيل: وقد أرسل إليه؟

قال: نعم.

قيل: مرحبًا به، فنعم المجيء جاء؟

ففتح، فلما خلصت إذا يحيى وعيسى، وهما أبناء الخالة.

قال: هذا يحيى وعيسى فسلم عليهما، فسلمت، فردّا، ثم قالا: مرحبًا بالأخ الصالح والنبي الصالح.

ثم صعد بي إلى السماء الثالثة، فاستفتح. **قيل**: من هذا؟

قال: جبريل.

قيل: ومن معك؟

قال: محمد.

قيل: وقد أرسل إليه؟

قال: نعم.

قيل: مرحبًا به، فنعم المجيء جاء؟

ففتح، فلما خلصت إذا يوسف. **قال**: هذا يوسف فسلم عليه، فسلمت عليه، فرد ثم **قال**: مرحبًا بالأخ الصالح والنبي الصالح.

ثم صعد بي إلى السماء الرابعة، فاستفتح. **قيل**: من هذا؟

قال: جبريل.

قيل: ومن معك؟

قال: محمد.

قيل: وقد أرسل إليه؟

قال: نعم.

قيل: مرحبًا به، فنعم المجيء جاء، ففتح، فلما خلصت إذا إدريس، **قال**: هذا إدريس فسلم عليه، فسلمت عليه، فرد ثم **قال**: مرحبًا بالأخ الصالح والنبي الصالح.

ثم صعد بي إلى السماء الخامسة، فاستفتح.

قيل: من هذا؟

قال: جبريل.

قيل: ومن معك؟

قال: محمد.

قيل: وقد أرسل إليه؟

قال: نعم.

قيل: مرحبًا به، فنعم المجيء جاء.

فلما خلصت فإذا هارون. **قال**: هذا هارون فسلم عليه، فسلمت عليه، فرد ثم **قال**: مرحبًا بالأخ الصالح والنبي الصالح.

ثم صعد بي إلى السماء السادسة، فاستفتح، **قيل**: من هذا؟

قال: جبريل.

قيل: ومن معك؟

قال: محمد.

قيل: وقد أرسل إليه؟

قال: نعم.

قيل: مرحبًا به، فنعم المجيء جاء.

فلما خلصت فإذا موسى. **قال**: هذا موسى فسلم عليه، فسلمت عليه، فرد ثم **قال**: مرحبًا بالأخ الصالح والنبي الصالح.

فلما تجاوزت بكى.

قيل له: ما يبكيك؟

قال: أبكي لأن غلامًا بعث بعدي يدخل الجنة من أمته أكثر ممن يدخلها من أمتي.

ثم صعد بي إلى السماء السابعة، فاستفتح جبريل، **قيل:** من هذا؟

قال: جبريل.

قيل: ومن معك؟

قال: محمد.

قيل: وقد بعث إليه؟

قال: نعم.

قيل: مرحبًا به، فنعم المجيء جاء.

فلما خلصت فإذا إبراهيم، **قال:** هذا أبوك فسلم عليه، **قال:** فسلمت عليه، فرد السلام، **قال:** مرحبًا بالأخ الصالح والنبي الصالح.

ثم رفعت إلى سدرة المنتهى، وإذا أربعة أنهار، نهران باطنان ونهران ظاهران، **فقلت:** ما هذا يا جبريل؟

قال: أما الباطنان فنهران في الجنة، وأما الظاهران فالنيل والفرات.

ثم رُفع لي البيت المعمور، ثم أتيت بإناء من خمر وإناء من لبن وإناء من عسل، فأخذت اللبن، **فقال:** هي الفطرة، أنت عليها وأمتك.

ثم فُرضت علي الصلاة خمسين صلاة كل يوم، فرجعت، فمررت على موسى، **فقال:** بم أمرت؟

قال: أُمرت بخمسين صلاة كل يوم.

قال: إن أمتك لا تستطيع خمسين صلاة كل يوم، وإني والله قد جربت الناس قبلك، وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك.

فرجعت، فُوضع عني عشرًا، فرجعت إلى موسى فقال مثله، فرجعت فوضع عني عشرًا، فرجعت إلى موسى فقال مثله، فرجعت فوضع عني عشرًا، فرجعت إلى موسى فقال مثله فرجعت فأمرت بعشر صلوات كل يوم، فرجعت فقال مثله، فرجعت فأمرت بخمس صلوات كل يوم، فرجعت إلى موسى **فقال**: بم أمرت؟

قلت: أمرت بخمس صلوات كل يوم.

قال: إن أمتك لا تستطيع خمس صلوات كل يوم، وإني قد جربت الناس قبلك، وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك.

قال: سألت ربي حتى استحييت، ولكن أرضى وأسلم.

قال: فلما جاوزت نادى مناد: أمضيتُ فريضتي، وخففتُ عن عبادي.

حدثنا الحميدي، حدثنا سفيان، حدثنا عمرو، عن عكرمة، عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ [الإسراء:٦٠] **قال**: هي رؤيا عين أريها رسول الله ﷺ ليلة أسري به إلى بيت المقدس.

الرؤية كانت بالقلب لا بعيني الرأس

وقد اختلف الصحابة في رؤيته ﷺ ربه -عز وجل- بعيني رأسه، والصحيح أنه رآه بقلبه، ولم يره بعيني رأسه.

وقوله: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ۝١١﴾ [النجم] صح عن النبي ﷺ أن هذا المرئي جبرائيل، رآه مرتين على صورته التي خلق عليها.

وأما قوله تعالى في سورة النجم: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨﴾ [النجم] فهو غير الدنو والتدلي المذكورين في قصة الإسراء، فإن الذي في سورة النجم هو دنو جبرائيل وتدليه، كما قالت عائشة وابن مسعود رضي الله عنهما فإنه قال: ﴿عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨﴾[النجم].

فالضمائر كلها راجعة إلى هذا المعلم شديد القوى، وأما الدنو والتدلي الذي في حديث الإسراء فذلك صريح في أنه دنو الرب تعالى وتدليه، وأما الذي في سورة النجم أنه رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى فهذا هو جبرائيل، رآه مرتين، مرة في الأرض، ومرة عند سدرة المنتهى.

الإسراء بالجسد يقظة

ومما يدل على أن الإسراء بجسده في اليقظة قوله تعالى: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ۝١﴾[الإسراء]

والعبد: عبارة عن مجموع الجسد والروح، كما أن الإنسان: اسم لمجموع الجسد والروح، هذا هو المعروف عند الإطلاق، وهو الصحيح، فيكون الإسراء بهذا المجموع، ولا يمتنع ذلك عقلًا، ولو جاز استبعاد صعود البشر لجاز استبعاد نزول الملائكة، وذلك يؤدي إلى إنكار النبوة، فهو كفر.

الحكمة في الإسراء أولاً

فإن قيل: فما الحكمة في الإسراء إلى بيت المقدس أولًا؟

فالجواب -والله أعلم-: أنه كان ذلك إظهارًا لصدق دعوى الرسول ﷺ المعراج، حين سألته قريش عن نعت بيت المقدس، فنعته لهم، وأخبرهم عن عيرهم التي مر عليها في طريقه، ولو كان عروجه إلى السماء من مكة لما حصل ذلك، إذ لا يمكن اطلاعهم على ما في السماء لو أخبرهم عنه، وقد اطلعوا على بيت المقدس، فأخبرهم بنعته.

وفي حديث المعراج دليل على ثبوت صفة العلو لله تعالى من وجوه، لمن تدبره، وبالله التوفيق.

الإيمان بورود الحوض

قال: (والحوض الذي أكرمه الله تعالى به غياثًا لأمته: حق).

وذلك أن الأحاديث الواردة في ذكر الحوض تبلغ حد التواتر، رواها من الصحابة بضع وثلاثون صحابيًّا، ولقد استقصى طرقها شيخنا الشيخ عماد الدين ابن كثير، تغمده الله برحمته، في آخر تاريخه الكبير، المسمى بـ «البداية والنهاية».

فمنها: ما رواه البخاري رحمه الله تعالى عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم **قال**: «إن قدر حوضي كما بين أيلة إلى صنعاء من اليمن، وإن فيه من الأرابق كعدد نجوم السماء».

والذي يتلخص من الأحاديث الواردة في صفة الحوض: أنه حوض عظيم، ومورد كريم، يمد من شراب الجنة، من نهر الكوثر، الذي هو أشد بياضًا من اللبن، وأبرد من الثلج وأحلى من العسل. وأطيب ريحًا من المسك، وهو في غاية الاتساع، عرضه وطوله سواء، وكل زاوية من زواياه مسيرة شهر، فسبحان الخالق الذي لا يعجزه شيء.

وقد ورد في بعض الأحاديث أن لكل نبي حوضًا، وأن حوض نبينا صلى الله عليه وسلم أعظمها وأحلاها وأكثرها واردًا، جعلنا الله منهم بفضله وكرمه.

الإيمان بالشفاعة وأنواعها الثمانية

قال: (والشفاعة التي ادخرها لهم حق، كما رُوي في الأخبار).

والشفاعة أنواع: منها ما هو متفق عليه بين الأمة، ومنها ما خالف فيه المعتزلة ونحوهم من أهل البدع.

النوع الأول: الشفاعة الأولى، وهي العظمى، الخاصة بنبينا ﷺ من بين سائر إخوانه من الأنبياء والمرسلين صلوات الله عليهم أجمعين وفي «الصحيحين» وغيرهما، عن جماعة من الصحابة رضي الله عنهم جملة أحاديث تثبتها.

منها: قول النبي ﷺ في الحديث الصحيح:

«آتي تحت العرش، فأقع ساجدًا لربي -عز وجل- ثم يفتح الله علي ويلهمني من محامده وحسن الثناء عليه شيئًا لم يفتح على أحد قبلي، **فيقال:** يا محمد: ارفع رأسك، سل تعطه، اشفع تشفع، **فأقول:** يا رب: أمتي أمتي، يا رب: أمتي أمتي، يا رب: أمتي أمتي، **فيقول:** أدخل من أمتك من لا حساب عليه من الباب الأيمن من أبواب الجنة، وهم شركاء الناس فيما سواه من الأبواب، **ثم قال:** والذي نفس محمد بيده، لما بين مصراعين من مصاريع الجنة كما بين مكة وهجر، أو كما بين مكة وبصرى».

النوع الثاني والثالث من الشفاعة: شفاعته ﷺ في أقوام قد تساوت حسناتهم وسيئاتهم، فيشفع فيهم ليدخلوا الجنة، وفي أقوام آخرين قد أمر بهم إلى النار، لا يدخلونها.

النوع الرابع: شفاعته ﷺ في رفع درجات من يدخل الجنة فيها فوق ما كان يقتضيه ثواب أعمالهم، وقد وافقت المعتزلة على هذه الشفاعة خاصة، وخالفوا فيما عداها من المقامات، مع تواتر الأحاديث فيها.

النوع الخامس: الشفاعة في أقوام أن يدخلوا الجنة بغير حساب، ويحسن أن يستشهد لهذا النوع بحديث عكاشة بن محصن، حين دعا له رسول الله ﷺ أن يجعله من السبعين ألفًا الذين يدخلون الجنة بغير حساب، والحديث مخرج في «الصحيحين».

النوع السادس: الشفاعة في تخفيف العذاب عمن يستحقه، كشفاعته في عمه أبي

طالب أن يخفف عنه عذابه، ثم **قال القرطبي** في «التذكرة» بعد ذكر هذا النوع: **فإن قيل**: فقد قال الله تعالى: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [المدثر]؟ **قيل له**: لا تنفعه في الخروج من النار، كما تنفع عصاة الموحدين الذي يخرجون منها ويدخلون الجنة.

النوع السابع: شفاعته أن يؤذن لجميع المؤمنين في دخول الجنة، كما تقدم.

وفي «صحيح مسلم» عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**أنا أول شفيع في الجنة**».

النوع الثامن: شفاعته في أهل الكبائر من أمته، فمن دخل النار، فيخرجون منها، وقد تواترت بهذا النوع الأحاديث، وقد خفي علم ذلك على الخوارج والمعتزلة، فخالفوا في ذلك، جهلًا منهم بصحة الأحاديث، وعنادًا ممن علم ذلك واستمر على بدعته.

وهذه الشفاعة تشاركه فيها الملائكة والنبيون والمؤمنون أيضًا، وهي تتكرر منه ﷺ أربع مرات.

ومن أحاديث هذا النوع حديث أنس بن مالك **قال**: قال رسول الله ﷺ: «**شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي**». رواه الإمام أحمد بن حنبل.

ثم إن الناس في الشفاعة على ثلاثة أقوال: فالمشركون، والنصارى، والمبتدعون من الغلاة في تقليد المشايخ: يجعلون شفاعة من يعظمونه عند الله كالشفاعة المعروفة في الدنيا، والمعتزلة والخوارج أنكروا شفاعة نبينا ﷺ في أهل الكبائر، وشفاعة غيره، ولكن لا يشفع أحد حتى يأذن الله له ويحد له حدًّا.

كما في الحديث الصحيح حديث الشفاعة أنهم يأتون آدم، ثم نوحًا، ثم إبراهيم، ثم موسى، ثم عيسى، فيقول لهم عيسى عليه السلام اذهبوا إلى محمد، فإنه عبد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، «فيأتوني، فأذهب، فإذا رأيت ربي خررت له ساجدًا، فأحمد

ربي بمحامد يفتحها علي، لا أحسنها الآن، **فيقول**: أي محمد: ارفع رأسك، وقل يسمع، واشفع تشفع. **فأقول**: ربي، أمتي فيحد لي حدًّا، فأدخلهم الجنة، ثم أنطلق فأسجد، فيحد لي حدًّا». ذكر هذا ثلاث مرات.

تفصيل في حكم الاستشفاع والتوسل والدعاء

وأما الاستشفاع بالنبي ﷺ وغيره في الدنيا إلى الله تعالى في الدعاء، ففيه تفصيل، فإن الداعي تارة يقول: بحق فلان، يقسم على الله بأحد من مخلوقاته، فهذا محذور من وجهين: أنه أقسم بغير الله.

الثاني: اعتقاده أن لأحد على الله حقًّا، ولا يجوز الحلف بغير الله، وليس لأحد على الله حق إلا ما أحقه على نفسه، كقوله تعالى: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ [الروم].

وكذلك ما ثبت في «الصحيحين» من قوله ﷺ لمعاذ رضي الله عنه وهو رديفه: «يا معاذ، أتدري ما حق الله على عباده؟ **قلت**: الله ورسوله أعلم **قال**: حقه عليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا، أتدري ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك؟ **قلت**: الله ورسوله أعلم، **قال**: حقهم عليه ألَّا يعذبهم».

فهذا حق وجب بكلماته التامة ووعده الصادق، لا أن العبد نفسه يستحق على الله شيئًا كما يكون للمخلوق على المخلوق، فإن الله هو المنعم على العباد بكل خير، وحقهم الواجب بوعده هو ألَّا يعذبهم، وترك تعذيبهم معنى لا يصلح أن يقسم به، ولا أن يسأل بسببه ويتوسل به؛ لأن السبب هو ما نصبه الله سببًا.

وكذلك الحديث الذي في المسند من حديث أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ في قول الماشي إلى الصلاة.

«أسألك بحق ممشاي، وبحق السائلين عليك» فهذا حق السائلين، هو أوجبه على نفسه، فهو الذي أحق للسائلين أن يجيبهم، وللعابدين أن يثيبهم، ولقد أحسن **القائل**:

مـا للعبـاد عليـه حـق واجـب كـلا، ولا سـعيٌ لديـه ضـائعُ
إن عُـذبوا فبعدلـه، أو نُعمـوا فبفضله، وهـو الكـريم الواسـع؟

فإن قيل: فأي فرق بين قول الداعي: «بحق السائلين عليك» وبين قوله: «بحق نبيك» أو نحو ذلك؟

فالجواب: أن معنى قوله: «بحق السائلين عليك»: أنك وعدت السائلين بالإجابة، وأنا من جملة السائلين، فأجب دعائي، بخلاف قوله: «بحق فلان» وإن كان له حق على الله بوعده الصادق فلا مناسبة بين ذلك وبين إجابة دعاء السائل، فكأنه يقول: لكون فلان من عبادك الصالحين أجب دعاي! وأي مناسبة في هذا وأي ملازمة؟ وإنما هذا من الاعتداء في الدعاء، وقد قال تعالى: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةًۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ٥٥﴾ [الأعراف].

وهذا ونحوه من الأدعية المبتدعة ولم ينقل عن النبي ﷺ ولا عن الصحابة، ولا عن التابعين، ولا عن أحد من الأئمة، وإنما يوجد مثل هذا في الحروز والهياكل التي يكتب بها الجهال والطُّرُقية، والدعاء من أفضل العبادات، والعبادات مبناها على السنة والاتباع، لا عن الهوى والابتداع.

وإن كان مراده: الإقسام على الله بحق فلان، فذلك محذور أيضًا، لأن الإقسام بالمخلوق على المخلوق لا يجوز، فكيف على الخالق؟ وقد قال ﷺ: «من حلف بغير الله فقد أشرك» ولهذا قال أبو حنيفة وصاحباه رضي الله عنهم يكره أن يقول الداعي: أسألك بحق فلان أو بحق أنبيائك ورسلك، وبحق البيت الحرام والمشعر الحرام، ونحو ذلك، حتى كره أبو حنيفة ومحمد بن الحسن الشيباني أن يقول الرجل اللهم إني أسألك بمعقد العز من عرشك، ولم يكرهه أبو يوسف لما بلغه الأثر فيه.

وتارة يقول: بجاه فلان عندك، أو يقول: نتوسل إليك بأنبيائك ورسلك

وأوليائك، ومراده: لأن فلانًا عندك ذو وجاهه وشرف ومنزلة فأجب دعانا وهذا أيضًا محذور، فإنه لو كان هذا هو التوسل الذي كان الصحابة يفعلون في حياة النبي ﷺ لفعلوه بعد موته، وإنما كانوا يتوسلون في حياته بدعائه، ويطلبون منه أن يدعو لهم، وهو يؤمنون على دعائه، كما في الاستسقاء وغيره، فلما مات: قال عمر رضي الله عنه لما خرجوا يستسقون: «اللهم إنا كنا إذا أجدبنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا» معناه: بدعائه هو ربه وشفاعته وسؤاله، ليس المراد إنا نقسم عليك به، أو نسألك بجاهه عندك؛ إذ لو كان ذلك مرادًا لكان جاه النبي ﷺ أعظم وأعظم من جاه العباس.

وتارة يقول: باتباعي لرسولك ومحبتي له وإيماني به وسائر أنبيائك ورسلك وتصديقي لهم، ونحو ذلك، فهذا من أحسن ما يكون من الدعاء والتوسل والاستشفاع.

فلفظ التوسل بالشخص والتوجه به: فيه إجمال، غلط بسببه من لم يفهم معناه فإن أريد به التسبب به لكونه داعيًا وشافعًا وهذا في حياته يكون، أو لكون الداعي محبًّا له مطيعًا لأمره: فيكون التوسل إما بدعاء الوسيلة وشفاعته، وإنما بمحبة السائل واتباعه، أو يراد به الإقسام به والتوسل بذاته، فهذا الثاني هو الذي كرهوه ونهوا عنه.

وكذلك السؤال بالشيء: قد يراد به التسبب به؛ لكونه سببًا في حصول المطلوب، وقد يراد به الإقسام به.

ومن الأول: حديث الثلاثة الذين أوَوْا إلى الغار، وهو حديث مشهور في الصحيحين وغيرهما، فإن الصخرة انطبقت عليهم، فتوسلوا إلى الله بذكر أعمالهم الصالحة الخالصة، وكل واحد منهم يقول: فإن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه، فانفرجت الصخرة فخرجوا يمشون، فهؤلاء دعوا الله

بصالح الأعمال؛ لأن الأعمال الصالحة هي أعظم ما يتوسل به العبد إلى الله، ويتوجه إليه ويسأله به؛ لأنه وعد أن يستجيب للذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله.

فالحاصل: أن الشفاعة عند الله ليست كالشفاعة عند البشر، فلا يشفع عنده أحد إلا بإذنه، فالأمر كله لله، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ﴿١٥٤﴾﴾[آل عمران].

وقال تعالى: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ ﴿١٢٨﴾﴾[آل عمران].

فإذا كان لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه لمن يشاء، ولكن يكرم الشفيع بقبول شفاعته، كما قال ﷺ : «اشفعوا تؤجروا، ويقضي الله على لسان نبيه ما شاء» وفي الصحيح أن النبي ﷺ **قال**: «يا بني عبد مناف: لا أملك لكم من الله شيئًا، يا صفية عمة رسول الله ﷺ : «لا أملك لك من الله شيئًا، يا عباس عم رسول الله ﷺ : لا أملك لك من الله شيئًا».

فإذا كان سيد الخلق وأفضل الشفعاء يقول لأخص الناس به: لا أملك لك من الله من شيء، فما الظن بغيره؟

وإذا دعاه الداعي، وشفع عنده الشفيع، فسمع الدعاء وقبل الشفاعة: لم يكن هذا هو المؤثر فيه كما يؤثر المخلوق في المخلوق، فإنه سبحانه وتعالى هو الذي جعل هذا يدعو ويشفع، وهو الخالق لأفعال العباد، فهو الذي وفق العبد للتوبة ثم قبلها، وهو الذي وفقه للعمل ثم أثابه، وهو الذي وفقه للدعاء ثم أجابه، وهذا مستقيم على أصول أهل السنة المؤمنين بالقدر، وأن الله خالق كل شيء.

الإيمان بميثاق الأزل

قال الطحاوي: (والميثاق الذي أخذه الله تعالى من آدم وذريته: حق)

فقد قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ

أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدۡنَآۚ أَن تَقُولُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنۡ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾

[الأعراف].

يخبر سبحانه أنه استخرج ذرية بني آدم من أصلابهم شاهدين على أنفسهم أن الله ربهم ومليكهم وأنه لا إله إلا هو.

وقد وردت أحاديث في أخذ الذرية من صلب آدم عليه السلام وتمييزهم إلى أصحاب اليمين وإلى أصحاب الشمال، وفي بعضها الإشهاد عليهم بأن الله ربهم.

علم الله محيط بكل شيء

قال: (وقد علم الله تعالى في الأزل عدد من يدخل الجنة، وعدد من يدخل النار، جملة واحدة، فلا يزد في ذلك العدد ولا ينقص منه، وكذلك أفعالهم فيما علم منهم أن يفعلوه).

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٌ ﴿١١٥﴾﴾ [التوبة].

وقال سبحانه: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾﴾ [الفتح].

فالله تعالى موصوف بأنه بكل شيء عليم، أولًا وأبدًا، ولم يتقدم علمه بالأشياء جهالة، وما كان ربك نسيًّا.

العبرة بقضاء الله في خواتيم الأعمال

وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه **قال:** «كنا في جنازة في بقيع الغرقد، فأتانا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقعد وقعدنا حوله، ومعه مخصرة، فنكس رأسه ينكت بمخصرته، ثم **قال:** ما من نفس منفوسة، إلا وقد كتب الله مكانها من الجنة والنار، وإلا قد كتبت شقية أو سعيدة، **قال:** فقال رجل: يا رسول الله، أفلا نمكث على كتابنا وندع العمل؟ **فقال:** من كان من أهل السعادة فسيصير إلى عمل أهل السعادة، ومن كان من أهل

الشقاوة فسيصير إلى عمل أهل الشقاوة، ثم **قال**: اعملوا فكل ميسر لما خلق له، أما أهل السعادة فسييّسرون لعمل أهل السعادة، وأما أهل الشقاوة فسييسّرون لعمل أهل الشقاوة، ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠﴾ [الليل].

خرجاه في الصحيحين.

قال: (وكل ميسر لما خلق له، والأعمال بالخواتيم، والسعيد من سعد بقضاء الله، والشقي من شقي بقضاء الله).

ففي الصحيحين عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه **قال**: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق:

«إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يومًا نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح، ويؤمر بأربع كلمات يكتب رزقه وأجله وعمله وشقيًّا أم سعيدًا. فوالذي لا إله غيره: إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها. وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها».

والأحاديث في هذا الباب كثيرة، وكذلك الآثار عن السلف.

قال أبو عمر بن عبد البر في التمهيد: قد أكثر الناس من تخريج الآثار في هذا الباب، وأكثر المتكلمون من الكلام فيه، وأهل السنة مجتمعون على الإيمان بهذه الآثار واعتقادها وترك المجادلة فيها، وبالله العصمة والتوفيق.

التعمق في معرفة أصل القدر ذريعة الخذلان

قال: (وأصل القدر سر الله تعالى في خلقه، لم يطلع على ذلك ملك مقرب، ولا نبي مرسل، والتعمق والنظر في ذلك: ذريعة الخذلان، وسلم الحرمان، ودرجة الطغيان، فالحذر كل الحذر من ذلك، نظرًا وفكرًا ووسوسة؛ فإن الله تعالى طوى علم القدر عن أنامه، ونهاهم عن مرامه، كما قال تعالى في كتابه: ﴿لَا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأنبياء] **، فمن سأل: لم فعل؟ فقد رد حكم الكتاب، ومن رد حكم الكتاب: كان من الكافرين).**

والذي عليه أهل السنة والجماعة: أن كل شيء بقضاء الله وقدره، وخالف في ذلك القدرية والمعتزلة، وزعموا أن الله شاء الإيمان من الكافر، ولكن الكافر شاء الكفر، فوقعت مشيئة الكافر دون مشيئة الله تعالى! وهذا من أقبح الاعتقاد، وهو قول لا دليل عليه، بل هو مخالف للدليل، فقد قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾﴾ [السجدة].

وقال تعالى: ﴿فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ ﴿١٢٥﴾﴾ [الأنعام].

فرق بين المشيئة والرضا

ومنشأ الضلال: من التسوية بين المشيئة والإرادة، وبين المحبة والرضا، فسوى بينهما الجبرية والقدرية، ثم اختلفوا **فقال الجبرية**: الكون كله بقضاء الله وقدره، فيكون محبوبًا مرضيًّا، **وقالت القدرية النفاة**: ليست المعاصي محبوبة لله ولا مرضية له، فليست مقدرة ولا مقضية، فهي خارجة عن مشيئته وخلقه.

وقد دل على الفرق بين المشيئة والمحبة: الكتاب والسنة والفطرة الصحيحة.

أما نصوص المشيئة والإرادة من الكتاب فقد تقدم ذكر بعضها.

وأما نصوص المحبة والرضا فقال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ٢٠٥﴾ [البقرة].

وقال سبحانه: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ٧﴾[الزُّمَر].

وفي الصحيح عن النبي ﷺ **قال:** «إن الله كره لكم ثلاثًا: قيل وقال، وكثرة السؤال، وإضاعة المال».

وفي المسند: «إن الله يحب أن يؤخذ برخصه كما يكره أن تؤتى معاصيه».

فإن قيل: كيف يريد الله أمرًا ولا يرضاه ولا يحبه؟ وكيف يشاؤه ويكونه؟ وكيف تجتمع إرادته وبغضه وكراهته؟

قيل: هذا السؤال هو الذي افترق الناس لأجله فرقًا وتباينت طرقهم وأقوالهم، فاعلم أن المراد نوعان: مراد لنفسه، ومراد لغيره، فالمراد لنفسه مطلوب محبوب لذاته وما فيه من الخير، فهو مراد إرادة الغايات والمقاصد، والمراد لغيره: قد لا يكون مقصودًا لما يريد، ولا فيه مصلحة له بالنظر إلى ذاته، وإن كان وسيلة إلى مقصوده ومراده، فهو مكروه له من حيث نفسه وذاته، مراد له من حيث قضاؤه وإيصاله إلى مراده، فيجتمع فيه الأمران: بغضه وإرادته، ولا يتنافيان، لاختلاف متعلقهما، وهذا كالدواء الكريه، إذا علم المتناول له أن فيه شفاءه، وقطع العضو المتآكل، إذا علم أن في قطعه بقاء جسمه، وكقطع المسافة الشاقة، إذا علم أنها توصل إلى مراده ومحبوبه، بل العاقل يكتفي في إيثار هذا المكروه وإرادته بالظن الغالب وإن خفيت عنه عاقبته، فكيف ممن لا يخفى عليه خافية، فهو سبحانه يكره الشيء، ولا ينافي ذلك إرادته لأجل غيره، وكونه سببًا إلى أمر هو أحب إليه من فوقه.

من ذلك: أنه خلق إبليس، الذي هو مادة لفساد الأديان والأعمال والاعتقادات

والإرادات وهو سبب لشقاوة كثير من العباد، وعملهم بما يغضب الرب سبحانه، وهو الساعي في وقوع خلاف ما يحبه الله ويرضاه ومع هذا فهو وسيلة إلى محابِّ كثيرة للرب تعالى ترتبت على خلقه، ووجودها أحب إليه من عدمها.

منها: أنه يظهر للعباد قدرة الله تعالى على خلق المتضادات المتقابلات، فخلق هذه الذات، التي هي أخبث الذوات وشرها، في مقابلة ذات جبرائيل التي هي أشرف الذوات وأطهرها، فتبارك خالق هذا وهذا، كما ظهرت قدرته في خلق الليل والنهار والداء والدواء، والحسن والقبح، وذلك دليل كمال قدرته.

ومنها: ظهور آثار أسمائه القهرية، مثل: القهار، والمنتقم، وشديد العقاب وذي البطش الشديد، فإن هذه الأسماء والأفعال كمال، لابد من وجود متعلقها ولو كان الجن والإنس على طبيعة الملائكة لم يظهر أثر هذه الأسماء.

ومنها: ظهور آثار أسمائه المتضمنة عفوه ومغفرته، وقد أشار النبي ﷺ إلى هذا بقوله: «**لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون ويستغفرون، فيغفر لهم**».

ومنها: حصول العبودية المتنوعة التي لولا خلق إبليس لما حصلت، فإن عبودية الجهاد من أحب أنواع العبودية إليه سبحانه، ولو كان الناس كلهم مؤمنين لتعطلت هذه العبودية وتوابعها، من الموالاة لله سبحانه وتعالى والمعاداة فيه، وعبودية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعبودية الصبر، والتوبة.

فإن قيل: فهل كان يمكن وجود تلك الحكم بدون هذه الأسباب؟

فهذا سؤال فاسد! وهو فرض وجود الملزوم بدون لازمه، كفرض وجود الحركة بدون المتحرك، والتوبة بدون التائب.

فإن قيل: كيف يرضى لعبده شيئًا ولا يعينه عليه؟

قيل: لأن إعانته عليه قد تستلزم فوات محبوب له أعظم من حصول تلك الطاعة

التي رضيها له، وقد يكون وقوع تلك الطاعة منه يتضمن مفسدة هي أكره إليه سبحانه من محبته لتلك الطاعة، وقد أشار تعالى إلى ذلك بقوله: ﴿وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾﴾[التوبة].

فأخبر سبحانه أنه كره انبعاثهم إلى الغزو مع رسوله: وهو طاعته، فلما كرهه منهم ثبطهم عنه، ثم ذكر سبحانه بعض المفاسد التي ترتبت على خروجهم مع رسوله، **فقال:** ﴿لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا ﴿٤٧﴾﴾[التوبة].

أي: فسادًا وشرًّا.

﴿وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾﴾[التوبة].

أي: سعوا بينكم بالفساد، وفيكم من يستجيب لهم، فيتولد من سعي هؤلاء واستجابة هؤلاء من الشر ما هو أعظم من مصلحة خروجهم، فاقتضت الحكمة والرحمة أن أقعدهم عنه، فاجعل هذا المثال أصلًا وقس عليه.

هل نحن مأمورون بالرضا بكل مقضي

فإن قيل: إذا كان الكفر بقضاء الله وقدره ونحن مأمورون أن نرضى بقضاء الله، فكيف ننكره ونكرهه؟

فالجواب: أن يقال أولًا: نحن غير مأمورين بالرضا بكل ما يقضيه الله ويقدره، ولم يرد بذلك كتاب ولا سنة، بل من المقضي ما يرضى به، ومنه ما يسخط ويمقت، كما لا يرضى به القاضي لا قضيته سبحانه، بل من القضاء ما يسخط، كما أن من الأعيان المقضية ما يغضب عليه ويمقت ويلعن ويذم.

ويقال ثانيًا: هنا أمران: قضاء الله، وهو فعل قائم بذات الله تعالى، ومقضي، وهو المفعول المنفصل عنه، فالقضاء كله خير وعدل وحكمة، نرضى به كله، والمقضي